سوسيولوجيا القيم والعولمة

أ. فرفار جمال،

قسم علم الاجتماع،

المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي.

تعتبر القيم حقائق أساسية هامة في البناء الاجتماعي لذلك تعالج من وجهة النظر السوسيولوجية، على أنها عناصر بنائية تشتق أساسا من التفاعل الاجتماعي، وتعد في السنوات الأخيرة من المواضيع التي تحظى بأهمية بالغة وواضحة في النظرية أو البحث السوسيولوجي. وتعتبر القيم مبدأ مجرد وعام للسلوك يشعر أعضاء الجماعة نحوه بالارتباط الانفعالي القوي كما أنه يوفر لهم مستوى للحكم على الأفعال، والأهداف الخاصة. إلا أن هذا المفهوم شهد تحولاً جذرياً بدخوله مرحلة ما بعد الحداثة التي أعطت بعداً ورؤية جديدة لمسألة القيم اختلفت عما كانت عليه من قبل.

مفهوم القيم

إن كلمة القيمة التي انتشر استعمالها في عصرنا بمعنى الكلمة الفرنسية Valeur تدل، أصلاً على اسم النوع من الفعل " قام" بمعنى وقف، واعتدل، وانتصب، وبلغ واستوي...(الربيع. م. 1980. 27). فالقيم هي عبارة عن مستوى أو معيار للانتقال من بين بدائل أو ممكنات اجتماعية متاحة أمام الشخص الاجتماعي في الموقف الاجتماعي (محمد خليفة. ع. 1992. 207). أما بارسونز Parsons فيرى أن استمرار الجماعة مرهون بضمان تجديد القيم، ويميز بين أربعة أنساق فرعية مترابطة (ثقافية، سياسية، اقتصادية، اجتماعية)، التي تؤدي بدورها إلى تماسك كل تجمع اجتماعي. (Akoun. A et Ansert.P. 1999. 559) وعليه فالقيم في الواقع تتوقف على الأفعال العقلية وعلاقتها مع القيم. فهي حسب تعبير ماكس فيبر تمتلك بعداً موضوعياً، وهكذا فإن القيم تحدد العلاقة بين الموضوع المبتغى والهدف المثمن بالإضافة. إلى أن حكم القيم التي تتعتبر معايير وواجبات لا يمكنها أن تنقص من المعرفة العلمية المحدودة إلى الإثبات التجريبي للأفعال وفي نفس الوقت يظهر Weber دور القيم على المواقف والسلوكات وتحولها، والنتائج الناجمة عن أي تحول (Akoun.A et Ansert.1999. 560).

فالقيم كما يعتقد السوسيولوجي الفرنسي هنري مندراس Henri Mondras تمثل نسقاً في التنظيم المعنوي الذي يوجه فعاليات السلوك الإنساني، وهي بالتالي تعكس منظومة احتياجاتنا واهتماماتنا. (زحلوق.م، و وطفة. ع. 1994. 83). ومن خلال هذه التعاريف يمكن أن نصل إلى تعريف إجرائي: على أن القيم نتاج لعوامل موضوعية

اجتماعية، اقتصادية وتاريخية، يعيش من خلالها وفي ظلها الإنسان. كما نجد "يونغ" الذي استخدم تعريفاً للقيم، فهي في رأيه تشير إلى تركيب من الأفكار والاتجاهات التي تعطي مقياساً للتفضيل، أو أولوية للدوافع والأهداف وكذلك لمجرى الفعل من الدافع إلى الهدف.(بيومي م. 1990. 152).

خصائص القيم:

تمتاز القيم بمجموعة من الخصائص التي تميزها عن غيرها من المفاهيم الأخرى، ويمكن إجمال أهمها في ما يلي:

- إنسانية، بمعنى أنها تختص بالبشر دون غيرهم. لا تزامنية، بمعنى غير مرتبطة بزمن معين، فالقيم إدراك يرتبط بالماضي والحاضر والمستقبل، وهي بهذا المعنى تبتعد عن معنى الرغبات أو الميول التي ترتبط بالحاضر فقط.
- القيم تمتلك صفة الضدية (مضادة): فلكل قيمة ضدها مما يجعل لها قطباً ايجابياً وقطباً سلبياً، والقطب الايجابي هو وحده الذي يشكل القيمة في حين يمثل القطب السالب ما يمكن أن نسميه (ضد القيمة أو عكس القيمة).
- المعيارية: بمعنى أن القيم تعتبر بمثابة معيار لإصدار الأحكام تقيس وتقيم وتفسر وتعلل من خلالها السلوك الإنساني. (الزيود. م، 2006. 24).
- نسبية، أي أنها ليست مطلقة، تختلف عند الشخص بالنسبة لحاجاته ورغباته وتربيته وظروفه.
- مكتسبة: حيث يتعلمها ويكسبها الفرد من خلال البيئة التي ينتمي إليها وليست وراثية.
- ذاتية: بمعنى أن وزن القيمة وأهميتها يختلف من فرد لأخر.(دياب. ف.1980. 27).
- تتسم بالقابلية للتغير: بالرغم من أن القيم تتصف بالثبات النسبي، إلا أنها قابلة للتغيير بتغير الظروف الاجتماعية.
- القيم ذات صبغة اجتماعية: فهي تنطلق من إطار اجتماعي محدد، وعلى أساسها يتم الحكم على سلوك الأفراد، لأنها تنال قبولاً من المجتمع. (أبوجادو. ص. 1998. 208).

القيم والتحول الثقافي:

إن تعرض المجتمع لهجمات التغيرات الثقافية الجديدة يؤدي إلى تعرض عناصره الثقافية الاجتماعية للتغير بنسب متفاوتة، ولكن تغير العناصر الثقافية لا يتم بنفس

السرعة كما يعتقد أوجبرن. فالتغير السريع في إحدى جوانب ثقافتنا يتطلب تكيفات جديدة بإحداث تغيرات أخرى في مختلف أجزاء الثقافة المترابطة، وعندما لا تتغير الأجزاء تتعرض الثقافة للأزمة الثقافية أو القيمية والتي تشير إلى غياب التوازن بين القيم والمعايير الثقافية التي تشكل محتوى الثقافة ومضمونها.(زحلوق.م. 1994. 103). ويقول مارشال ماك لوهان Marshall Mac Luhan: " إننا نعيش في عصر التغيرات العاصفة، حيث يشكل التغير الاجتماعي نفسه الشكل الوحيد للثبات. إننا نقيم علاقاتنا وفقاً لمحاور متعددة في إطار هذا التغير المتسارع.(زحلوق.م. 1994. 104). إذ نجد رموز اللغة والفكر والثقافة الغربية هي المسيطرة على رموز الإنسان" المغترب" ثقافياً. فهويسكن ويحيا في المجتمع الذي ولد فيه ولكنه يتكلم ويفكر ويتثقف بلغة الآخر وفكره وثقافته، هو موجود بجسمه في مجتمعه وفي حيه ولكن عقله وروحه موجودان مع " الأخر" فهو مثال للقطيعة بين الجسد والروح، وما يصاحب ذلك من تمزق جارح للذات المغتربة. (الذوادي.م.2002. 18). فالقيم تتغير بدرجة متسارعة، وذلك بأسرع مما حدث في أية مرحلة من مراحل التاريخ المتقدمة. أما بالنسبة للتنوع، فيمكن الإحساس بالخليط العجيب المتنافر من الدعايات التي تهاجم العقول بعنف في المجتمعات المتقدمة تقنياً، فالبيوت والشركات والمدارس والجماعات ووسائل الإعلام والطوائف كلها تروج لمجموعة متضاربة من القيم. وفي هذا الصدد تقول مجلة نيوز ويك " News week": " نحن مجتمع فقد وحدته وهو مجتمع لا يستطيع أن يتفق على معايير سلوكية واحدة في مجال اللغة والأخلاق أو على ما ينبغي أن يسمع ويرى، فهناك نظم متصادمة من القيم(سليم.ج، وآخرون. 2003. 41).

إن الجوانب المادية الثقافية تكون أكثر عرضة وقابلية للتغير، حيث يمكن إرجاع حدوث ذلك التغير الثقافي إلى الاحتكاك والغزو الثقافي المتمثل في ظهور تيار العولمة الذي ساعد على جعل العالم قرية صغيرة، الأمر الذي أحدث اتصالاً وتبادلاً للثقافات بين الدول ويمكن اعتبار العوامل السياسية أو الثقافية، والتكنولوجية من مسببات التغير الثقافي. أما الأثر الأخر فيتمثل في حدوث الصدمة الثقافية، حيث تنتقل مع الإنسان كل القيم والتجارب والمعاني التي اكتسبها من موطنه الأصلي، وهو ما يؤدي إلى حدوث فجوة بين القيم السائدة في المجتمع الجديد وتلك التي اكتسبها الإنسان (سليم.ج وآخرون. 2003. 239). وعلى هذا الأساس أدى التغير الثقافي إلى بروز عناصر ومكونات ثقافية جديدة أدت بدورها كذلك إلى إحداث تغيرات جذرية في الأنظمة والأبنية الاجتماعية، حيث يتم

دخول هذه العناصر الثقافية الجديدة بواسطة الأفراد الذين يعتنقونها، وبمرور الوقت تتجذر وتأخذ طابعاً مألوفاً في المجتمع.

إذاً تهدف العولمة الثقافية إلى زرع القيم والأفكار النفسية والفكرية والثقافية للقوى المسيطرة في وعي الآخرين وعلى الأخص شباب المجتمعات العربية واختراقها ثقافياً... وإعادة صياغة قيم وعادات جديدة تؤسس لهوية ثقافية وحضارية أخرى لهذه المجتمعات مهددة هويتها الحضارية(الدهوي.ح.م. 2004. 33). وهكذا فإن خطر العولمة على القيم هوخطر لا يكاد يماثله خطر في باقي جوانب العولمة، لأن مسخ قيم الإنسان يؤدي إلى جهله (حيواناً غير مفكر) لا يهتم بغير الحصول على المال بشتى الطرق والوسائل وإنفاقه في التفاهات وما بين هذا وذاك يغدو بغير قيم وبغير عقيدة وبغير مبادئ ولا شك أن الحدث الأكبر أو الأخطر هو انقلاب العلاقة بين الزمان والمكان بصورة تغيرت معها أطر الوعي وبنية الإدراك أو وسائط الفكر ووسائل المعرفة، والمقصود بذلك سيطرة الزمان الفعلي على المكان التقليدي عن طريق النقل الفوري للمعطيات والترجمة العددية للمعلومات، أي سيطرة الزمان الذي يجري بسرعة الضوء على الأزمنة المحلية الخاصة بالشعوب والثقافات، أو بالدول والمجتمعات(حرب.ع.2000. 25)

مثيرات الصراع القيمي بين الأجيال: تتمثل في:

1- الفروق الفسيولوجية: الفروق بين الآباء والأبناء والبطء في عملية التطبيع الاجتماعي، ذلك أن الأجيال الجديدة بطبيعة الحال تخضع ولو مؤقتاً لسيطرة الأجيال القديمة، حيث تأخذ عنها وتتأثر بها والحياة بطبيعتها في تغير وتبدل أيضاً، ولذا يحدث صدام بين الأجيال السابقة واللاحقة... فالمفاهيم والقيم والعادات والتقاليد تتبدل وتتغير وأبناء الأجيال الجديدة يجدون أنفسهم مسوقين إلى الثورة على بعض هذه القيم والتقاليد، وهكذا يحدث صراع بين الأجيال، وهو صراع مستمر متواصل (السيد الشحات.أ.ح.1988. 136).

2- فروق نفسية اجتماعية: تتمثل في واقعية الكبار ومثالية الشباب، حيث تختلف وجهات النظر نتيجة طبيعة التكوين النفسي والاجتماعي، إذ نجد الشباب يرفضون المعايير والتوجيهات التي يمارسها الكبار، ذلك أن الشباب مولع بالبحث عن كل ما هو مثالي (السيد الشحات.أ.ح.1988. 137).

3- فروق سوسيولوجية: وتتجلى هذه الفروق في خلق معايير جديدة يشوبها التصارع والتصادم نتيجة الحداثة وما خلفته من معطيات اجتماعية مست بنية المعايير والعادات والأعراف والقواعد الاجتماعية التي من خلالها ينتظم سلوك الفرد والمجتمع معاً. مما

صعب من مهمة الآباء في التعامل مع الأبناء نتيجة الذهنية التي اكتسبها هؤلاء الشباب من جراء تداعيات مرحلة ما بعد الحداثة.

كما تبرز الفروق في القيم بين أبناء المدينة والريف حين تحتكر المدينة وسائل الاتصال والقوة تاركةً القرى معزولة أو شبه معزولة عما حولها، مستسلمة لتقاليد تعود إلى مئات السنين، وتظهر فروق في القيم أيضاً حين يضم المجتمع طبقات تتمايز من حيث الثروة أو المكانة الاجتماعية أو النفوذ السياسي أو الثقافة وغيرها، وتضيف إلى التقسيمات الأفقية للمجتمع تقسيماً عمودياً، وفي أحوال كهذه تقترن بهذه الفروق مشاعر استعلاء واحتقار من طرف، وحقد وعداء من الطرف الأخر، وقد تبلغ الفروق في القيم ضمن المجتمع الواحد حداً يشعر الناظر أنه إزاء ثقافات متعددة لا ثقافة واحدة (أبيض.م.1984. 34).

عولمة الهوية:

إن مشكلة هويتنا الثقافية، ليست في اكتساح العولمة والأمركة على ما نظن ونتوهم بل في عجز أهلها عن إعادة ابتكارها وتشكيلها في سياق الأحداث والمجريات، أوفي ظل الفتوحات التقنية والتحولات التاريخية، أي عجزهم عن عولمة هويتهم وأعلمة اجتماعهم وحوسبة اقتصادهم وعقلنة سياستهم وكوننة فكرهم ومعارفهم. تلك هي المشكلة الحقيقية التي نهرب من مواجهتها، وهي عجزنا حتى الآن عن خلق الأفكار وفتح المجالات، أو عن ابتكار المهام وتغيير الأدوار لمواجهة تحديات العولمة على أصعدتها المختلفة والمتعددة(حرب.ع.2000. 25).

1- الأبعاد الثقافية:

وتتمثل هذه الأبعاد من خلال اكتساب ثقافات ومعارف جديدة قد تؤدي إلى التغيير في هوية الشباب والتأثير عليها وذلك من خلال إحلال ثقافة جديدة محل الثقافة الأصلية ذات التوجه العربية الديني، الأمر الذي أدى إلى انقسام الشباب إلى تيارين تيار ذي ثقافة غربية معصرنة، وتيار متماسك بثقافته المحلية وتزايد واتساع الهوة الاجتماعية والثقافية بين الشباب وأصولهم العريقة. ذلك من خلال الغزو الثقافي والسيطرة على طرق تفكير الشباب المحلي عن طريق غرس ثقافة العولمة محل الثقافة الأم اعتماداً على وسائل الاتصال والتكنولوجيات الحديثة كشبكة الإنترنت من أجل السيطرة على عقول الشباب والتحكم فيها عن بعد.

فالعولمة نظام تبعية ثقافي مطلق وجديد من خلال الرموز الثقافية المستوردة الأمر الذي أدى إلى الانحراف الثقافي وإهمال الجانب الديني الذي يعتبر عاملاً روحياً يهذب النفوس،

والانسلاخ الكلي عن المكونات الشخصية والوطنية المكتسبة من الفضاء الاجتماعي ومحوها، والسعي وراء اكتساب ثقافة لا تعنيهم ولا تربطهم بصلة بما هو مألوف وموجود محلياً. وعليه فإن جل الشباب يتفقون على أن العولمة الثقافية بمثابة تمكين للنزعة المادية على حساب النزعة الروحية ومحو الخصوصية الثقافية والترويج لفكرة الثقافة العالمية والتمكين لسيادة القيم الغربية ونمط حياتها.

2- الأبعاد الاجتماعية:

يمكن حرصها في الانغماس الكلي في مظاهر الحياة المستوردة والابتعاد عن التقاليد والعادات والدين وإهمالها كلية وذلك من خلال اكتساب ممارسات جديدة تتنافى وطبيعة البنية الاجتماعية والثقافية المحلية إلى جانب إحلال ثقافة اجتماعية جديدة غريبة مبنية على التقليد والرموز الاجتماعية. من جهة أخرى فإن عولمة الهوية أحدثت فتنة اجتماعية وجنسية بصفة خاصة في أوساط الشباب، حيث أصبحت تشكل منعرجاً خطيراً يهدد المحيط الاجتماعي وذلك بواسطة الاهتمام بالمظاهر الخارجية (الشكلية) وإهمال المضمون الداخلي والحقيقي لتلك الممارسات انطلاقاً من عملية التقليد المطلق في جميع المستويات (لباس، الأفكار، الكلام...).

كما تحدث تعدد في الهويات وتنوعها بواسطة قولبة السلوكات والعلاقات الاجتماعية وجعلها مبنية على أساس مادي محض وسيطرة مبدأ النزعة الفردية على حساب النزعة الجماعية. إضافة على ذلك نجد أن هذه الظاهرة تؤدي إلى تراجع الولاء القومي تحت وطأة الانتماءات العرقية أو القبلية أو الطائفية، والتأثير في هياكل البناء الاجتماعي والطبقي للمجتمعات، وتقويض الدور الاجتماعي للدولة وتراجع مبادئ العدالة الاجتماعية إلى جانب زعزعة الاستقرار الاجتماعي وتزايد حدة الصراع وارتفاع الجريمة وتزايد التجارة الغير مشروعة وهذا ما يثبته الواقع المعاش.

3- الأبعاد الاتصالية والمعرفية:

للعولمة تأثير إعلامي عن طريق شبكة الإنترنت. فبقدر ما لها من محاسن فإن مساوئها كثيرة تهدد السلوكات الفردية للشباب عن طريق تأثيرها على عملية المعرفة بوجه عام من حيث غاياتها وأساليبها، أدواتها ومؤسساتها.

- العلاقة التبادلية بين العولمة وبين ثورة الاتصالات والمعلومات:

إذ نجدها تؤدي إلى فوضى عارمة في مستوى التفكير الشباني بواسطة غرس أفكار جديدة التي ينجم عنها انحراف فكري وانحلال القيم الخلقية.

العولمة الإعلامية كأحد مظاهر وأدوات عولمة الهوية لها تأثير على الجانب التقني لوسائل الاتصال الحديثة، والهيمنة على مضمون أو محتوى الرسائل الاتصالية والإعلامية عبر العالم.

4- الأبعاد السكانية:

ظهور فكرة " الحرقة "❖ (الهجرة الغير شرعية) من الموطن الأصلي لأن معظم الشباب يرون فيه (الوطن) الوسط الغير الملائم لتحقيق مقاصدهم، والأهداف التي يطمحون إليها كتحسين المعيشة والعمل وجمع المال.

- تنامي الاتجاهات المعادية للمهاجرين ونزعات كراهية الأجانب من جانب الجماعات المتطرفة.

- زيادة المخاوف من المهاجرين الجدد من ذوي الثقافات الغير المتجانسة.

من خلال الأبعاد المختلفة لظاهرة العولمة وتأثيرها على مواطنة الشباب من خلال تجسيد السلوكات والتصورات المختلفة حيث يؤكد روزناو(السياسي الأمريكي)على أن هذا المفهوم يقيم على علاقة بين مستويات متعددة للتحليل:"الاقتصاد، السياسة، الثقافة، الإيديولوجيا وتشمل إعادة تنظيم الإنتاج وتداخل الصناعات الغير محدود إلى جانب انتشار أسواق التمويل، تماثل السلع المستهلكة لمختلف الدول، نتائج الصراع بين المجموعات المهاجرة والمجموعات المقيمة" (سنو.م.ع.1999. 64). فكل هذه القضايا تؤدي إلى خلق ذهنية جديدة تمس البنية الثقافية والاجتماعية والدينية والسياسية لشريحة الشباب مكتسبين بذلك سلوكات وعادات جديدة تؤثر على ممارسات حس المواطنة الذي يعتمد على الثلاثية الممجدة " حرية – عدالة – مساواة ".

العولمة ليست شيئاً بسيطاً يمكن تعيينه ووصفه بدقة، بقدر ما هي جملة عمليات تاريخية متداخلة تتجسد في تحريك المعلومات والأفكار والأموال والأشياء، وحتى الأشخاص بصورة لا سابق لها من السهولة والآنية والشمولية والديمومة. إنها قفزة حضارية تتمثل في تعميم التبادلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية(حرب.ع.2000. 29). وعلى هذا الأساس تبقى مسألة القيم من المواضيع التي أثير حولها الجدل الكبير نظراً لخصائصها المتنوعة، وتفتح النقاش المستفيض لدى الباحثين السوسيولوجيين لاسيما المجتمعات العربية، لأن موضوع القيم لا يستقر على حال واحد، يتأثر بتغير البناء الاجتماعي والثقافي للمجتمع وبالأخص في مرحلة ما بعد الحداثة التي أفرزت تناقضات ومفاهيم جديدة.

المراجع:

❖- الحرقة (ينطق القاف جيماُ مصرية) وأصلها اللغوي فعل حرق: يحرق (ينطق القاف في اللهجة العامية في معظم مناطق الجزائر جيماُ مصرية) ويقصد بفعل حرق " حرق قانون النقل أي عدم دفع الثمن ثم تعدى هذا المفهوم هذا الفعل ليصبح فعل حرق يؤدي معنى "حرق " قانون الهجرة، أي الهجرة غير الشرعية ".

- الربيع ميمون، 1980، نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- عبد اللطيف محمد خليفة، 1992، ارتقاء القيم: دراسة نقدية، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- مها زحلوق ود. علي وطفة، 1994، الشباب قيم واتجاهات ومواقف، دمشق مطبعة الاتحاد.
- محمد أحمد بيومي، 1990، علم اجتماع القيم، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.
- ماجد الزيود، 2006، الشباب والقيم في عالم متغير،الأردن، دار الشروق.
- فوزية دياب، 1980، القيم والعادات الاجتماعية، بيروت، دار النهضة العربية.
- صالح محمد أبوجادو، 1988، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية، الطبعة الأولى عمان، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.
- محمود الذوادي، جانفي 2002، التخلف الآخر: عولمة أزمة الهويات الثقافية في الوطن العربي والعالم الثالث، الطبعة الأولى، المغرب، الأطلسية للنشر.
- جيهان سليم وأخرون، ديسمبر2003، الثقافة العربية: أسئلة التطور والمستقبل الطبعة الأولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
- حيدر حميد الدهوي، 2004، العولمة والقيم: رسالة في الطريق إلى ما بعد العولمة وقيمها، الطبعة الأولى، سورية. دمشق، منشورات دار علاء الدين.
- السيد الشحات أحمد حسن، 1988، الصراع القيمي لدى الشباب ومواجهته من منظور التربية الإسلامية، القاهرة، دار الفكر العربي.
- ملكة أبيض، 1984، الثقافة وقيم الشباب، سورية. دمشق، منشورات وزارة الثقافة السورية.
- علي حرب، 2000، حديث النهايات، المغرب، المركز الثقافي العربي.
- مي العبد الله سنو، 1999، الاتصال في عصر العولمة: الدور والتحديات الجديدة، الدار الجامعية.

-André AKOUN et Pierre ANSART. (1999). *Dictionnaire des sociologie.* ed, seuil, Paris.